الفصل الأول

قصص الحب

لست أعنى بالقصة ذلك المعنى الذى أراده «بو» Poe السيد الأول للقصة القصيرة الحديثة كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية بصدد حديثه عن حكايات ناثانيال هاوثورن Nathanial Hawthorne (١٨٤٢م) فقد قال: «علينا ألا نكتب أية عبارة - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - منبثقة عن ميل لم يكن موجودًا فى التخطيط المبدئى، فتقدم الفكرة كما هى مرتسمة فى الذهن واضحة المعالم، غير مهزوزة». وأكده بعد مرور أربعين عامًا براندر ماتيوس Brander Matheus فى بحثه المشهور عن فلسفة القصة القصيرة، قال فى الجزء الثانى من حيث البحث: «إن القصة الخليقة بأن تكون قصة شيء آخر أسمى من أن يعتبر قصة ذات حجم قصير. القصة القصيرة

الجديرة بهذا الاسم تختلف عن الرواية أساسًا فى الوحدة العامة للانطباع، بعبارة دقيقة وموجزة.. ومن الجدير بالملاحظة أن القصة القصيرة غالبًا ما تتحقق فيها الوحدات الثلاث الأساسية التى تتحقق فى الشكل المسرحى الفرنسى الكلاسيكى، والذى يظهر فى فعل واحد، فى مكان واحد وزمان واحد. والقصة القصيرة أيضًا تقتصر على بطل واحد، وحادثة واحدة، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد».

لست أقصد هذا المعنى، إذ أنه لم يكن معروفًا فى العالم قبل القرن التاسع عشر. وإنما أقصد ذلك المعنى الذى جاء فى القواميس العربية لهذه المادة، وأعنى تلك الطبيعة الخاصة للقالب القصصى العربى.

فى لسان العرب تحت مادة (قصص): «والقصة الخبر وهو القصص، وقص على خبره يقصه قصًا وقصصًا أورده، والقصص الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه والقصص بكسر القاف جمع القصة التى تكتب.. وتقصص كلامه حفظه، وتقصص الخبر تتبعه، والقصة الأمر والحديث، واقتصصت بالفتح الاسم. **والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها..** وقص آثارهم يقصها قصا وقصصًا وتقصصا تتبعها بالليل، وقيل هو تتبع الأثر أى وقت كان.. قال الأزهرى: القص اتباع الأثر، ويقال خرج فلان قصصا فى إثر فلان

وقصا، وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرًا بعد خبر وسوقه الكلام سوقًا».

ذلك هو ما يتعلق بموضوعنا من المعنى اللغوى لهذه المادة، لمعناها العام «المتابعة»، فقص آثارهم تتبعها بالليل أو فى أى وقت كان، وتقصص الخبر تتبعه.

ولا نطلب من اللغويين أكثر من هذه المعانى العامة للكلمة، فإن مهمة أصحاب اللغة هى الإشارة إلى ما تثيره الكلمة من صور ذهنية عند أصحاب اللغة، وليس من مهمتهم التحديدات الفنية لاستعمال الكلمة، فإن كلمة «بديع» مثلا فى اللغة غير المعنى المراد لها عند أصحاب البلاغة. وإذاً فمن حقنا أن نلوم أصحاب البلاغة على تجاهلهم التحديد الفنى لمعنى القصة وكان هناك أكثر من مناسبة تتيح لهم الحديث عن معنى القصة، فمثلا كان يمكنهم ذلك فى أثناء شرحهم للاستعارة التمثيلية، وأنها قد تكون بتشبيه حالة حاصلة بحكاية قد حصلت وضرب فيها مثل، كأن تضرب المثل «الصيف ضيعت اللبن» فى حالة تشابه حكاية المرأة مع الرجل العجوز الذى طلب منها الزواج ففضلت عليه شابًا، ثم حدث أن احتاجت إليه فى أمر، فقال لها هذه الجملة التى صارت مثلا.

ومن حقنا أيضا أن نلوم أصحاب الكتب الأدبية كابن عبد ربه والجاحظ وكان ذا عقلية قصصية شعبية، إذ لم يتعرض أحد منهم لمعنى القصة ولا لتحديدها الفنى.

وهذا التجاهل فرع من القضية الكبرى وهى ازورار أصحاب البلاغة الفصحى، وعلماء الأدب الفصيح عن هذا اللون الهام من الأدب.

بل إن الجاحظ فى كتابه العظيم «البيان والتبيين» نلمح فى كلامه السخرية من القصاص، فكان مرة يتحدث عن جهلهم، وثانية عن نوادرهم، وثالثة عن فلسفهم. وسخر ابن عبد ربه فى الجزء الثالث من العقد الفريد من القصص، فتحت عنوان: عجائب القصص» أورد حكايات عن جهلهم وعن نوادرهم.

أمر نحمله لهؤلاء المفسرين، فقد حددوا معنى للقصة أثناء تفسيرهم للآيات التى وردت فيها هذه الكلمة، وهذا المعنى ملائم لاتجاههم وللغرض الذى يريده أصحاب الدين من القصة.

يقول الرازى رحمه الله عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿إن هذا لهو القصص الحق... إلخ.﴾ ما يلى: «والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بسلب النجاة»[1]

بل تقدم المفسرون خطوة أكثر من هذا، فتحدثوا عن عناصر القصة، فلا مانع لديهم من أن يكون فى القصة عناصر ليست صادقة صدقًا خارجيًا، بل هى أمور خيالية يؤتى بها للتوضيح والتمثيل جاء

(١) التفسير الكبير ٤٧٤/٢ (القاهرة - المطبعة الخيرية - الطبعة الأولى سنة ١٣٠٧ هـ).

فى الكشاف : «فإن قلت ما معنى ذكر التعاج، قلت كان تحاكمهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا، لأن التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا، وللتنبيه على أمر يستحيى من كشفه فيكنى عنه، كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته.. إلخ. فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم، قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها، فصوروها فى أنفسهم، وكانوا فى صورة الأناسى، كما تقول فى تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة، وعمر له أربعون وأنت تشير إليها، فخلطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد، وتقول أيضًا فى تصويرها : لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها»[1].

فالزمخشرى يرى أن القرآن قد يلجأ إلى عناصر توضيحية، يجسد بها قصصه، ويكشف أحداثه، وكان النيسابورى أصرح فى الإشارة إلى هذه العناصر، فقد قال : «ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل، ولكن مع منازعة الخيال. وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال.

(١) الكشاف ٣/٣٢٣ - ٣٢٤ (مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤ هـ).

ولا شك أن الثانى يكون أكمل، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره فى الكتاب الذى أنزل بيانًا لكل شىء[1].

ويخطو الزمخشرى - رحمه الله - خطوة أخرى، فيتحدث عن أثر القصة وما تفعله فى نفوس النشء فيقول: «فإن قلت لم جاءت عن طريق التمثيل والتعريض دون التصريح (وذلك بصدد حديثه عن تمثل الملائكة فى صورة أناس ودخولهم محراب داود عليه السلام يختصمون إليه فى أمر النعاج ويلمّحون بذلك إلى أمر داود مع امرأة أوريا). قلت: لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به، كان أوقع فى نفسه وأشد تمكنًا من قلبه، وأعظم أثرًا فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه، من أن يبادره صريحًا، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة، ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا فى سياسة الولد. إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله، إذا تأملها استشعر حال صاحب الحكاية، فاستشعر حال نفسه وذلك أزجر له، لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسًا لشأنه، فيتصور قبح ما وجد فيه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة»[2].

---

(١) غرائب القرآن ١٩٩/١ (مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ).

(٢) الكشاف ٣٢٢/٣ (طبع مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ).

كنا نود أن يتلقف أصحاب البلاغة هذه التلميحات، فتدفعهم إلى البحث عن القصة وعناصرها التي تكون لها الجمال الفني الرائع. ولكنهم وقفوا عند هذا الحد، وكأن الأدب لا يعرف من أنواع القصة إلا القصة الدينية، وكأن المفسرين هم فقط المسئولون عن القصص.

وغلبة المعنى الديني على القصص تلمحها أيضًا في المعاجم العربية، فلو وفقها الله وأرادت أن تتوسع في الحديث عن القصص، فإنها تتكلم عن القصص الدينية، جاء في اللسان: «وفي الحديث لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال»، أي لا ينبغي ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا، وإما مأمور بذلك يكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسبًا، أو يكون القاص مختالا يفعل ذلك تكبرًا عن الناس، أو مرائيًا يرائي الناس بقوله وعمله لايكون وعظه وكلامه حقيقة وقيل أراد الخطية لأن الأمراء كانوا يلونها في الأول ويعظون الناس فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة. وفي الحديث القاص ينتظر المقت لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان، ومنه الحديث إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا، وفي رواية لما هلكوا قصّوا...»

ويخيل للقارئ في كتب المفسرين وفي المعاجم وفي كتب الأدب أن كلمة «قصة» قد تخصصت بعد نزول القرآن، فبعد أن كانت عامة تطلق - فيما تطلق - على «الأمر والذي تكتب» كما يقول صاحب القاموس، أصبحت ترادف كلمة وعظ، أي الأمر الذي يلين قلوب

الناس بما يقصه عليهم من أخبار الأمم السابقة، حتى إن الزمخشرى فى أساس البلاغة يجعل من المعانى الحقيقية لهذه المادة، ذلك المعنى الذى نستطيع أن نلمحه من قوله: «والقصاص يقصون على الناس ما يرق قلوبهم».

وقد كثر استعمال هذه المادة «قصة» وخصوصًا بعد نزول القرآن ولجوئه إلى القصص كوسيلة للتأثير على القلوب، وقد استخدم القرآن هذه المادة فى آياته أكثر من سبع وعشرين مرة وذلك على حسب الإحصاء الذى ورد فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

فاستخدام هذه المادة فى القرآن الكريم، ووروده فى نصوص أدبية وفى كتب الأدب والتفسير، وفى المعاجم - كل هذا جعلنى لا أجد غضاضة فى إطلاق هذه المادة على هذه الحكايات التى شاعت فى الأدب العربى عن العشاق وما جرى لهم.

ومن ناحية ثانية فإن كلمة «قصة» - فى ظنى - أنسب من استخدام كلمة سمر، أو خرافة، أو خبر، أو حديث، أو حكاية.

فإن السمر: يعنى - فيما يعنى - الليل وحديثه كما جاء فى القاموس، والأسمار تدل بصفة خاصة على الأحاديث والقصص التى يسمر بها الناس فى حياة الصحراء كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية.

أما الخرافة: فإنها - وإن كان مصدرها - أن رجلًا من عذرة - القبيلة التى اشتهر فيها العشاق الذين نحن بصدد الحديث

عن قصصهم - استهوته الجن فكان يحدث بما رأى، فكذبوه وقالوا: «حديث خرافة» مع أن مصدرها جل من عذرة لكنها تطلق على حديث مستملح كذب، كما ذكر القاموس. «وقد تطور مدلولها فأصبح لا يدل إلا على الأساطير المستحيلة، إذا قوبلت بغيرها من الحكايات التي يقبلها العقل وإن كانت من نسيج الخيال»[1].

أما الخبر والحديث: فيطلقان في المعاجم على المعنى العام لهاتين المادتين، فالحديث هو الخبر[2]، وعن ابن سيده أن الخبر هو النبأ[3]. ثم أصبح لهاتين الكلمتين معنى خاص وهو اصطلاح الأصوليين، إذ يعنى بهما ما ينسب إلى النبي عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير. فيستحسن - إذن - ترك هاتين المادتين للمعنى الاصطلاحي الذي يسرع إلى الذهن بمجرد التلفظ بهما، ويبحث عن مادة أليق بالفن وأدخل فيه.

أما كلمة «**حكاية**» فلم تستعمل في «اللسان» بمعنى القصة، فما جاء فيه بصدد الحديث عن هذه المادة: «الحكاية كقولك حكيت فلانًا وحاكيته فعلت مثل فعله، أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه.. والمحاكاة المشابهة، تقول: فلان يحكي الشمس ويحاكيها بمعنى». وتلخص دائرة المعارف الإسلامية المعاني التي كانت تطلق على الحكاية

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية مادة «الحكاية».

(٢) لسان العرب مادة «حدث».

(٣) المرجع السابق مادة «خبر».

فى القرون الأربعة الأولى من السنة الهجرية، فتقول: «مما تقدم تبين أن كلمة حكاية تطابق الكلمة اليونانية «vivlris» ومن ثم جاءت جميع معانيها فهى أولا تأتى بمعنى المحاكاة رغبة فى الشريعة، والحاكية المحترف هو الذى يقلد أيضًا. ثم ترد بمعنى رواية القول، فنقول: حكيت عنه الحديث حكاية. وقد تدل على مجرد المشابهة كما لو كان شيء يحاكى آخر لشبه بينهما». وإذا صح ما جاء فى هذه الدائرة من أن الحكاية لم يكن من معانيها القصة فى القرون الأربعة الأولى على الأقل، فإن الرازى حين يقول: «وإنما سميت الحكاية قصة، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئًا فشيئًا» - يجعل الأخبار التى تروى عن الأمم السالفة حكايات، ثم أطلق عليها لفظ قصة، لأن الحكايات يتبع بعضها بعضًا مع أن العكس هو الصحيح إذ أن تلك الأخبار يسميها القرآن قصصًا. ثم أطلق على تلك القصص - فى وقت متأخر يحدده بعضهم بعصر الحريرى - حكايات، لأن الذى يقص القصص - على ما رأى يحاول أن يحاكى فى قوله الأصل الذى وقعت فيه، وهذا التعليل يصدق إن كان للحكاية أصل نحاول أن نقلده. أما إذا كانت بنت القريحة فإنى أرى أن لفظ الحكاية أطلق على القصة التى لها أصل، ثم أصبح يدخل فى مدلوله - من باب الغلبة - القصة التى لا أصل لها.

وفذلكة الموضوع أن الكلمات: خبر وحديث وحكاية وقصة تفيد معنى واحداً، فى تزيين الأسواق عقد مؤلفه عنوانًا «أخبار

المجنون وصاحبته ليلى»، ثم قال فى أثناء هذه الأخبار: «وسيجىء ذكر ما رأى له من أشعار أوردته آخر القصة» وفى كتاب «قصص الأنبياء» أورد الكسائى كل قصة تحت عنوان «حديث» وابن المقفع يستعمل كلمة «حكى» لما أورده من إحدى القصص.

ولكنى مع ذلك أوثر كلمة «قصة» على غيرها، لأنها أقرب إلى محيط الأدب. ولأن كلمة خبر وحديث قد غلب عليهما المصطلح الدينى. ولأن كلمة حكاية لم تستعمل - أو على الأقل لم تشتهر - بمعنى القصة فى العصر الأموى، ذلك العصر الذى ازدهرت فيه قصص الحب كما بينت فى رسالتى للماجستير.

على أننى أعود فأكرر أننى لا أعنى بالقصة ذلك المعنى الحديث الذى قال به «بو» مثلا. إذ لا أطالب الأقدمين بشىء قد اخترعه المحدثون. وخاصة أن فن القصة فن سريع التغير، وإنه لتشتتنا تلك المذاهب السريعة التلاحق والكثيرة التشعب، فمن كلاسيكية، إلى رومانتيكية إلى واقعية وطبيعية إلى نفسية إلى اللامعقولية... إلخ. وكل مذهب من المذاهب له فهم خاص للقصة يتمشى مع نظرته وبنائه الفلسفى.

وإنما أعنى معنى يتفق وطبيعة القصة العربية، ويتمشى مع نسق هذه الأخبار الغرامية.

على أى حال انتشر بين العرب - والطبقة الشعبية منهم بنوع خاص - نوع من القصص تدور حول العشاق يتسامرون بها فى

مجالسهم وحول النيران وبجوار الخيمة. وقد انتشرت هذه القصص بين الناس انتشارًا واسعًا، حتى إن ابن داود لم يجد فائدة فى ذكر كثير من هذه الأخبار فى كتابه «الزهرة»، لأنها على حد قوله: «قد كثرت فى أيدى الناس فقل من يستفيدها». وألفت كتب كثيرة حول هذا الموضوع أغلبها فقد. فقد مات رجل من بنى أسد بسبب عشق جارية فصنعوا له كتابًا فى ذلك مثل كتاب جميل وبثينة وعفراء وعروة وكثير وعزة. وابن النديم فى الفهرست يذكر ثبتًا بأسماء تلك الكتب يزيد على مائة وستة وثلاثين كتابًا، وداود الأنطاكى ينقل عن كتب كثيرة فى كتابه «تزيين الأسواق» تزيد على ثمانية عشر كتابًا، وابن أبى حجلة فى كتابه «ديوان الصبابة» ينقل عن كتب كثيرة من هذا النوع.

وقد نافست هذه القصص الغناء والشعر، فمعبد يذكر أنه جاء إلى مكة والتق بالغريض فغناه لحنًا فى شعر جميل ثم غناه الغريض أيضًا لحنًا فى شعر جميل، ثم بعد ذلك أراد أن يعرف خبر جميل وبثينة فقال: «ليتنى عرفت إنسانًا يحدثنى بقصة جميل وخبر الشعر، فأكون قد أخذت بفضيلة الأمر كله فى الغناء والشعر» فسأل عن ذلك فإذا الحديث مشهور، وقيل له: «إن أردت أن تخبر بمشاهدته فأت بنى حنظلة فإن فيهم شيخًا منهم يقال له فلان يخبرك الخبر، فأتى الشيخ فسأله فقص على معبد قصة رائعة حدثت فى الربيع بين جميل وبثينة بمحضر من هذا الشيخ»[1].

(١) انظر هذه القصة كاملة فى الأغانى ١٣٩/٢ «طبعة ساسى».

ونقرأ كتب الأدب فنجد الناس يحرصون على هذه القصص، ويفتشون عنها ويرجعون إلى أهل الذكر ليفيضوا لهم فيها، فعبد الملك ابن مروان يسأل كثيرًا عن أعجب خبر له مع عزة فيقص عليه قصة فيها غرابة وطرافة[1]. ويدخل نصيب على يزيد بن عبد الملك، فيقول له: «حدثني يا نصيب ببعض مآثر بلك» فيقص عليه قصة حبه لجارية خطبها فأبت أن تتزوجه لسواده، ثم رأت أن الشعر والمال يغطيان على السواد فقبلته[2]. ويدخل على عبد العزيز بن مروان فيسأله: هل عشقت قط؟ فيقص عليه قصة عشقه لأمة من بني مدلج[3]. ويقف الناس بباب بعض الولاة ويطول وقوفهم، ويصيبهم الضيق وإذا بأعرابي طريف يتغلب على هذا الضيق فينادي: «من أراد أن يسمع العجائب فليدن مني» ثم يقص عليهم قصة حبه لأم جحدر[4].

فكثير ونصيب وهذا الأعرابي ما هم إلا أفراد من تلك الفئة التي عندها كثير من هذه القصص، يسألهم الناس عنها.

وهذا الكتيب سيكشف عن شيء من طبيعة هذه القصص، فيتحدث أولا عن أغراضها، ثم يتتبع ثانيًا تطورها على مختلف العصور وفي شتى المناحي.

---

(١) المرجع السابق ٢٩٩/٢ «طبعة دار الكتب».

(٢) المرجع السابق ٥٤/١.

(٣) المرجع السابق ٢٧٥/١.

(٤) تزيين الأسواق ٣٧/١ (طبعة بولاق ١٢٩١ هـ).

بقيت كلمة أخيرة إذ أن دراستى لهذه القصص ستوسع المعنى الضيق الذى تصوره الباحثون لأنواع النثر، فهم فى دراستهم وفى كتبهم يتحدثون عن الخطابة والخطباء، وعن الرسائل والكتاب، وغير ذلك من أنواع النثر التى فيها تأنق وصناعة وأرستقراطية.

وفاتهم أن هناك نوعًا من النثر فيه شعبية وديمقراطية، كان يجرى على ألسنة العامة فى يسر وسلاسة وبعد عن التأنق والصناعة.

وربما كان هذا النوع من النثر أصدق فى الدلالة على نفوس منشئيه ومتلقيه من هذا النوع الذى نشأ كثير منه فى بلاط الخلافة وفوق أخشاب المنابر.

والحق أننا فى حاجة إلى تخطيط جديد لدراسة النثر فى أدبنا العربى متسم بالنظرة الكلية التى تلتفت إلى أدب الشعب بجانب أدب الخاصة. وبخاصة فى هذا العصر الذى يتسم بالاشتراكية والتسمع لنداءات الطبقة العاملة. متخلص من تلك الدائرة الضيقة التى حصر فيها الباحثون أنفسهم الأمر الذى دعا البعض إلى اتهام الأدب العربى بالعقم والتكلف[1]

وهذا الإهمال لذلك الجانب الحيوى - من النقاد والمثقفين - أدى إلى أن هذه القصص الشعبية أخذت تنمو فى بطء وبعد عن الرعاية والتخطيط والدراسة الرائدة.

---

(١) انظر مقالا لى نشر بمجلة الهلال (نوفمبر سنة ١٩٦٤) «القصة العربية القديمة».